مجلة مركز بحوث و دراسات المدينة المنورة

العدد السابع شوّال –ذو الحجة ١٤٢٤ هـ ديسمبر– فبراير ٢٠٠٤ م

- مركز المناخة الحضري ذاكرة حية لتراث المدينة
- رواد علم السيرة في المدينة
- فخري باشا والدفاع عن المدينة : ملحمة ومأساة
- البيوت التقليدية في المدينة المنورة
  أثر مواد البناء وأساليبه في تجانسها العمراني
- شد الأثواب في سد الأبواب للسيوطي (تحقيق)

تقرير عن
(سد معاوية في منطقة المدينة المنورة)
زيارة واستطلاع

أ. صالح بن محمد المطيري
محاضر بكلية التقنية في المدينة

مقدمة

كنت قد قرأت الوصف الذي كتبه د. سعد الراشد الباحث المختص بالآثار الإسلامية عن سد معاوية بن أبي سفيان ﷺ والذي شيده في وادي الخنق بالمدينة المنورة[1] . فأكبرت عندها ما تجلى في ذلك البناء من براعة هندسية وتصميمية ومساحية من قبل البنائين المسلمين في عصر مبكر من عصور الحضارة الإسلامية ، أي منذ حوالي عام ٥٠ هجري (خلال حكم معاوية ﷺ). فرغبت إثر ذلك في زيارته والوقوف عليه ، إلا أنني فوجئت بأن كثيرًا ممن سألتهم لا يعرف مكانه ، وإن كان بعضهم قد سمع به من قبل ، وأنه قد انهار منذ زمن بعيد ، كما وجدت أن كثيرًا من الناس لم يسمع به من قبل أبدًا . وكل هذا في نظري مبرر ؛ ذلك أن السد مبني في جهة بعيدة عن النطاق العمراني للمدينة المنورة ، وفي مكان ناءٍ عن الطرق المعبدة. لذا لم أجد لي هاديًا للوصول إليه إلا وصف الراشد لمكانه ، بأنه يقع جنوب شرق مطار المدينة على امتداد وادي الخنق ، وأنه يقع على إحداثيات (٤ً -٢٦َ -٢٤ْ ش / ٥٢٠ً - ٥٥َ -٣٩ْ ق) ، وهذه لا تعرفها إلا أجهزة التوجيه الملاحية (GPS). لذا أخذت أبحث بنفسي في تلك المنطقة على الامتداد الخلفي لوادي العاقول (وادي الخنق) علني أجد ذلك السد ، وكان أن أخذت في الطريق السريع المتجه إلى القصيم ، والذي يقطع وادي الخنق بعد عشرين كيلومترًا من المدينة ، فقررت أن أسال بعض أهل المنطقة المحليين علهم يدلوني عليه ، فتوقفت في قرية هناك ، يمر بها الطريق السريع

(١) في كتابه : دراسات في الآثار الإسلامية المبكرة بالمدينة المنورة .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

اسمها (الحار) ، فأوقفت أحد السكان وقلت له : إني أريد السد المذكور في هذه الجهة ، فقال لي منددًا ومهولاً : وماذا تريد به ؟ إن به جنًا وعفاريت ، ولقد سقطت به طائرة كان بها (خواجات) ، جاؤوا لأخذ حجر منه ، فسقطت بهم فيه ، (يقصد الحجر الذي فيه النقش التأسيسي للسد) . لكنني أخبرته أني أريد الذهاب إليه ورؤيته على أية حال، فأخبرني بأن الطريق إليه يمر عبر مجرى الوادي مسنّدًا (أي عكس انحدار الماء) إلى أن يصل الجبل الذي فيه . لكن أدركني الظلام في ذلك الوقت ، فأرجأت البحث إلى اليوم التالي ، وعدت للمدينة .

وفي اليوم التالي ، أخذت الطريق السريع المتجه إلى القصيم ، وبعد أن تجاوزت جسر وادي الخنق ، الذي على الطريق بحوالي كيل ونصف ، نزلت يمينًا باتجاه الجنوب الشرقي ، سائرًا في مجرى الوادي نفسه (أي واد الخنق) ، ومجرى الوادي هذا يمر بين جبال كثيرة ، وتجد نفسك تسير بين واجهات صخرية ، قد حفرها جريان الماء في الوادي عبر القرون، وفي أثناء ذلك تجد جبيلاً صغيرًا واقعًا في وسط مجرى الوادي ، وقد حفر الماء جانبيه وتركه منفصلاً عن البقية . كما يمر الطريق ببعض المزارع الصغيرة والبيوت القليلة ، وبعد حوالي سبعة كيلومترات من السير في بطن الوادي ، تواجه الذاهب على البعد أمامه جبال ، وتجد أن الوادي نفسه قد ذهب شعبتين ، شعبة إلى الشرق ، وأخرى إلى الجنوب ، وبالاتجاه يمينًا مع الجنوب قاصدًا تلك الجبال ، يقع السدُّ نفسه (سد وادي الخنق) بين جبلين في ممر ضيق ، ونظرًا لأن واجهة السد مما يلي المدينة وقد بُنيت من الصخر الأسود فإنه قد يصعب تمييزها عن بُعدٍ ، لأن لونها مشاكل لصخور الجبل .

اختيار مكان السد براعة مساحية جيولوجية

يقع السد كما أسلفت في ممر ضيق بين جبلين ، **ويعجب المرء للبراعة المساحية (الجيولوجية) لمن اختار مكانه** ، لأنه قد لا توجد نقطة أضيق من هذا المكان على طول الوادي كله ، وربما جاء اسم الوادي نفسه (أي الخنق) من هذا الممر أو المجرى الضيق ، ذي الجوانب الشاهقة ، الذي بني فيه السد . ويوجد

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أسفل السد جرف عميق قد رسم فيه الماء خطوطًا قد ارتفعت لحوالي ستة أمتار ، كما يرى آثار طحالب وأعشاب مائية على الجوانب الصخرية للجرف ، مما يدل على طول مكث الماء فيه ، **ولا زالت بقية من السد مبنية بقرميدها الأحمر المحروق ثابتة في قعر الجرف** ، فيما انهار وسط السد وبقي منه كتلتان ضخمتان ثابتتان في جوانب الجبل ، **ويلاحظ أن الجدار الباقي من السد مبني على شكل مدرج** ، ويمكن تعليل ذلك : الرغبة في زيادة مقاومة القاعدة ، أي : قاعدة السد ، كما أنه نظرًا لارتفاعه (حوالي ٣٠ مترًا) فإنه بوضعه المدرج هذا يساعد العمال في الصعود عليه ، وبناء بقية المدرجات أو الطبقات التي فوقه ، وبهذا يغنيهم عن الاستعانة بأخشاب أو نحوها للوصول إلى الأعلى . كما أنه يسهل عليهم صيانته والعناية به وترميم ما قد يحدث في جداره من صدوع أو خروق . وبالنظر للطوب المعدِّ بالفرن الذي بنيت منه واجهة السد المقابلة للماء، فإنه **ليحار المرء لمتانة ذلك الطوب ودرجه مقاومته** رغم مرور أكثر من ١٣٥٠ سنة على إنشائه ، حتى ليخال المرء أنه من الصخر ؛ من شدة صلابته ومقاومته للكسر . وعندما يصل الإنسان إلى قاع الجرف أسفل السد مباشرة ، يرى الجوانب المتهدمة منه بوضوح أكثر ، كما يرى أن السد عندما انهدم قد قلع معه من جانب الجبل كتلتين صخريتين قد استقرتا في قعر الجرف ، واندفعتا مع التيار مما يلي المدينة ، ويرى الإنسان مقلعهما هوة كبيرة ، داخلة في جانب الجبل قد عششت فيها جوارح الطير ، لذا فإنه يصعب المرور عبر الممر ؛ نظرًا لهذه الصخور الضخمة .

وفي الجدار المقابل للمدينة من السد ، **يمكن رؤية مقلع النقش التأسيسي الذي يؤرخ لبنائه** ، ويرقد ذلك الحجر الذي يحوي النقش حاليًا في المتحف الوطني بالرياض ، وكان قد نجا من أيدي لصوص الآثار ، لأنهم عجزوا عن حمله (كما أشار أحد السكان المحليين أعلاه ، وكما يذكر الراشد في دراسته) . لذا فإنه من المعتقد أن السد كان معروفًا لأهل الآثار أو السياح ، منذ مدة ليست بالقصيرة .

وإلى الشرق من هذا السد سد آخر مثله ، إلا أنه أصغر حجمًا ، وهو منهار أيضًا عدا كتلتيه اللاصقتين بالجبل ، ويوجد عبره جادة مطروقة للإبل ، تمر بين

صخوره المتناثرة في ممر وعر يبدو أنه لا يوجد أقصر منه للمتجه إلى المدينة[١] ، وقد كان سد معاوية ﷺ منذ القديم ممرًا للحجاج ، إذ يذكر أبو إسحاق الحربي صاحب كتاب (المناسك) أن طريقًا من المدينة إلى مكة يمر بسد مُعاوية ، ومنه إلى معدن بني سليم[٢] : مهد الذهب ، وربما ظل هذا الطريق مستخدمًا حتى العصور الحديثة ، إذ نجد (وادي الخنق) ، الذي فيه السد ، يظهر ضمن محطات الطريق الشرقي بين مكة والمدينة ، وذلك بناء على الخارطة التي رسمها اللواء إبراهيم رفعت أمير الحج المصري[٣] ، أوائل القرن الميلادي المنصرم .

وأما عن كيفية انهيار ذلك السد العريق فيتداول الناس حكاية لا يدرى أصحيحة هي أم لا ؟ مؤداها : أن اثنين من الحجاج الذاهبين إلى المدينة نزلوا على قوم كانوا مقيمين عند السد ، لكن القوم لم يحسنوا إليهما أو أنهم فعلوا شيئًا أثار نقمتهما ، فدعا الحاجان عليهم بأن يُغرقهم الله بهذا السد ، إلا أنهما استشعرا معروفًا من أحد هؤلاء القوم ، فعَزَّ عليهما هلاكه ، فنصحاه بمغادرة المكان ، عندما يرى قرية النمل المجاورة تنقل قوتها إلى الجبل ، ويقال : إنه لم تمر أيام حتى انهار ذلك السد ، وأغرق أولئك القوم . لكن يُفهم من النقول التي أوردها د. سعد الراشد عن مؤرخي المدينة ؛ أن السد تهدم بفعل الزلازل والبراكين التي تعرضت لها المنطقة في القرون الغابرة[٤]. ويمكن أن يلاحظ أن حجارة السد التي بني بها متناثرة هنا وهناك في منطقته ، وبعضها قد جرفه الماء إلى مسافة بعيدة ، وبعضها استخدمه الناس في تسوير أراضيهم المجاورة .

ويعتبر ذلك السد من أهم المنشآت المائية الأثرية ، في منطقة المدينة المنورة ، ورغم ذلك **لا يجد الذاهب إليه أية علامة تدل على أنه موقع أثري مهم** ، لذا فمن المستحسن أن يوضع عنده ما يشير إلى كونه من المواقع الأثرية المهمة في منطقة المدينة المنورة ، مع معلومات موجزة عنه . وحبذا لو وضعت لوحات على الطريق

---

(١) يوجد طريق آخر يلتف على الجبل الذي فيه السد ، ويتجه إلى لمدينة، ولكنه أطول .

(٢) المناسك، ص ٣٣٠

(٣) مرآة الحرمين ، جـ ٢(الملاحق) ، وقد وصف هذه الطريق في جـ ١: ص ٣٦٩ -٣٨٠ . وكذلك : رسائل في تاريخ المدينة ، حمد الجاسر ، ص ٦ من الرسالة الأولى .

(٤) دراسات في الآثار الإسلامية المبكرة في المدينة المنورة ، ص ٤٢ -٤٣

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إليه أسوة ببعض المواقع الأثرية ، لأنه الآن لا يمكن الوصول إليه ، إلا بالبحث والسؤال .

➤ صورة تبين جزأه المتهدم

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

➤ صورة جانبية للسد تبين جداره المدرج

صورة تبين عمق الجرف الذي تحت السد ➤
والصخور الواقعة في مضيقه